قبل المونـاد

معظم الأشخاص الذين يستكشفون الروحانية يصلون في النهاية إلى ما يعتقدون أنه السؤال النهائي، وهو: ما هو الله؟ ما هو المصدر؟ ما الذي جاء أولاً؟ لكن إليك شيئًا قد يغير كل ما كنت تعتقد أنك تعرفه عن الوجود نفسه. حتى مفهوم الله، ذلك الوعي الإلهي الأول، ما أطلق عليه الغنوصيون القدماء اسم المونـاد، كان لا بد أن ينبثق من شيء ما.

فكر في الأمر. لكي تحدث لحظة أولى من الوعي الذاتي الإلهي، كان لا بد من وجود حالة تجعل هذا الإدراك ممكناً. أدرك الغنوصيون الأوائل هذا الأمر. لقد حفظوا شظايا من المعرفة حول ما كان موجوداً قبل المونـاد، قبل أن يكون أنا الأول، قبل أن يتعرف الوعي على نفسه كوعي.

هذا ليس عالماً غامضاً آخر أو إلهاً خفياً. إنها الحالة التي سمحت للوجود أن يبدأ في معرفة نفسه. نحن لا نتحدث عن الدين هنا. نحن نتحدث عن تتبع الوعي إلى مصدره المطلق، متجاوزين نقطة انطلاق كل تقليد روحي. ما نكتشفه هناك يغير طريقة فهمنا للوعي والواقع وطبيعتنا الأعمق.

يأخذنا هذا البحث إلى منطقة لا تستطيع معظم تقاليد الحكمة وصفها بشكل كافٍ، لكن الآثار المترتبة عليه عملية بشكل مدهش. عندما نتحدث عن الوعي، فإننا نفترض تلقائياً أن شخصاً ما أو شيئاً ما يقوم بالوعي. هذا الافتراض، الذي هو أساسي لدرجة أننا نادراً ما نشكك فيه، يكشف لماذا تتحدى الحالة التي تسبق المونـاد كل ما نعتقد أننا نفهمه عن الوجود نفسه.

لم يكن علماء الكون الغنوصيون مهتمين بقصص الخلق التي تبدأ بعبارة "في البدء خلق الله" لأنهم أدركوا شيئًا أكثر عمقًا بكثير. قبل أن يتمكن أي شيء من الخلق، وقبل أن يظهر أي وعي إلهي، كان لا بد من وجود لحظة يلمح فيها الوجود غير المتمايز نفسه لأول مرة، ليس كإله، ولا كوعي، ولا حتى كـ "أنا"، ولكن كأضعف إدراك بأن شيئًا ما يحدث.

فكّر فيما تتطلبه المراقبة فعلياً. في هذه اللحظة، وأنت تقرأ هذا، هناك علاقة واضحة بين الفاعل والمفعول به تحدث. أنت هنا، أيها المراقب، وهذه المعلومات التي تتم مراقبتها. يخلق وعيك نوعاً من المساحة الداخلية حيث يمكن للتجربة أن تتكشف، ولكن إليك الأمر المثير للاهتمام. يُعد كل من المراقب والمُراقَب ضروريين لحدوث أي نوع من أنواع التعرّف. قبل المونـاد، لم يكن أي منهما موجوداً. لم يكن هذا اللاوعي. هذا فرق جوهري. يشير اللاوعي إلى غياب الوعي، كما هو الحال عندما تكون تحت تأثير التخدير أو في نوم عميق.

ما نستكشفه هو ما قبل الوعي، وهي حالة لم يتبلور فيها الإطار الذي يجعل الوعي ممكناً بعد. تخيل محاولة قول: "أنا" في هذه الحالة البدائية. يصبح البيان مستحيلاً ليس لعدم وجود وعي، بل لعدم وجود "أنا" للإدلاء

بهذا البيان. إن مفهوم الذات بحد ذاته، أي نوع من أنواع الذات، سواء أكانت بشرية أم إلهية أم كونية، يتطلب وجود حدود، وتمييز بين ما هو الذات وما ليس الذات.

في الحالة التي سبقت الموناد، لم تتشكل مثل هذه الحدود قط. نحن البشر لدينا هذا الميل المستمر لإسقاط تجربتنا في الوعي إلى الوراء بلا حدود. نتصور الوعي على أنه هذه الخلفية الأبدية التي لا تتغير والتي يظهر عليها كل شيء آخر، لكن الرؤية الغنوصية أعمق بكثير. إنهم يدركون أن حتى القدرة على الوعي نفسها لها نقطة أصل، ليس في الزمن كما نفهمه، لأن الزمن لم يكن قد ظهر بعد، ولكن بمعنى أنه كان هناك انتقال من حالة لم تكن فيها أي مراقبة ممكنة إلى حالة أصبح فيها ذلك ممكناً. فكّر في ما يعنيه هذا عملياً. في أعمق حالتنا التأملية، نلامس أحيانًا حواف هذا اللغز .

يصف الممارسون المتقدمون لحظات يتلاشى فيها حتى الشعور بأنني أمارس التأمل تماماً. لا يوجد متأمل، ولا تأمل، ولا إحساس بفعل أي شيء على الإطلاق. ومع ذلك، لا يزال هناك شيء ما، ليس اللاوعي، بل نوع من الوعي الأساسي لدرجة أنه يسبق تكوين أي ذات مراقبة. لكن حتى هذه الحالات التأملية العميقة لا تمثل إلا تقريباً لما نناقشه. يعود المتأمل دائماً إلى الذات، إلى بنية الذات والموضوع للوعي الطبيعي.

لم يكن للحالة التي سبقت الموناد مثل هذا العودة لأنه لم يكن هناك أي خروج عنها في المقام الأول. إذن، ما هي طبيعة الوجود نفسه في هذه الحالة؟ هنا تبدأ لغتنا بالانهيار لأن كل كلمة نستخدمها تنطوي على شكل من أشكال التمييز. لا يمكننا القول إنها كانت سلمية لأن السلام يعني غياب الصراع، والصراع يتطلب كيانات منفصلة. لا يمكننا القول إنها كانت موحدة لأن الوحدة تعني أشياء اجتمعت معاً. لا يمكننا حتى أن نقول إنها كانت موجودة لأن الوجود، كما نفهمه، يتطلب شيئاً يمكن تمييزه عن العدم. لكن هذه الحالة لم تكن فراغ أو عدم أيضاً. الفراغ والعدم مفهومان لا معنى لهما إلا بالمقارنة مع الامتلاء أو الحضور. ما نشير إليه لم يكن يحتوي على فاعل، ولا مفعول به، ولا عارف، ولا معروف، ولكنه لم يكن فراغاً أو غياباً.

تخيل مرآة لم تعكس أي شيء قط . تتمتع المرآة بقدرة كاملة على الانعكاس. سطحها مثالي، وموقعها مثالي، لكن لم تظهر فيها أي صورة على الإطلاق. الإمكانات هائلة، لكن لم يحدث أي تحقق فعلي.

هذا يقترب مما نستكشفه، إلا أن هذا التشبيه نفسه يشير إلى المرآة كجسم، مما يعيدنا إلى عالم التمايز. يمثل الموناد أول ارتعاشة للإدراك، اللحظة الأولى التي طورت فيها هذه الحالة غير المتمايزة بطريقة ما القدرة على مراقبة نفسه. ليس على وجه الخصوص، فهذا سيأتي لاحقًا مع ظهور الوعي الإلهي وفي النهاية الكون المادي، ولكن ببساطة على أنه إدراك أن شيئًا ما يحدث بدلاً من لا شيء.

ولهذا السبب غالباً ما يواجه الباحثون الروحيون صعوبة في الوصول إلى أعمق حالات التأمل أو التفكر. لقد تم تدريبنا على الحفاظ على نوع من الإحساس بالشاهد، ونوع من الوعي المراقب الذي يمكنه الإبلاغ عن التجربة. لكن الحالات التي تقترب بشكل كبير مما نناقشه تتطلب التحلل الكامل حتى لذلك المراقب الدقيق. لم يعد هناك أحد ليخوض هذه التجربة، ومن المفارقات أن هذا هو الوقت الذي يمكن أن يحدث فيه الإدراك الأعمق.

إن ما يجعل هذا الأمر صعباً بشكل خاص بالنسبة لفهمنا هو أن الموناد، باعتباره أول استقرار للوعي، يخلق وهماً بأنها بداية كل شيء. من منظور الموناد، لم يكن هناك شيء قبله لأن القدرة على المنظور تبدأ بالموناد نفسه. الأمر أشبه بسؤالك عما كنت تفعله قبل أن تولد. يفترض السؤال وجود "أنت" قبل ظهور الذات، لكن علماء الكون الغنوصيين استشعروا شيئًا رائعًا. إن الموناد نفسه ينبثق من شيء أكثر بدائية، ليس من العدم، بل من حالة أساسية لدرجة أنه يسبق إمكانية الإدراك.

الموناد هو أول صدى للوجود الذي يدرك نفسه، ولكنه ليس أصل الوجود نفسه. يُغيّر هذا التمييز كل شيء في فهمنا للوعي والألوهية وطبيعتنا الأعمق. سندرس بدقة كيف حدثت لحظة الإدراك الأولى، والآلية الدقيقة التي تبلور به الموناد من هذه الحالة البدائية.

إليكم شيئًا يُحدث ثورة كاملة في كيفية فهمنا للواقع الروحي. إن الموناد ليس المكان الذي يبدأ فيه كل شيء، بل هو المكان الذي يظهر فيه الحد الأول. هذا التمييز يغير كل شيء تماماً فيما يتعلق بكيفية تعاملنا مع أعمق أسئلة الوجود. تخيل هذه اللحظة معي. أنت تنظر إلى بحيرة جبلية ساكنة تماماً عند الفجر، ساكنة لدرجة أنها تشبه لوحاً من الزجاج. ثم تسقط قطرة واحدة من غصن متدلٍ. في اللحظة التي تلامس فيها تلك القطرة السطح، تظهر أول تموج. والآن، إليكم النقطة الحاسمة. هذا التموج ليس هو الماء نفسه. كان الماء موجوداً بالفعل، كاملاً وغير متمايز. إن التموج هو ببساطة الحركة الأولى التي تخلق تمييزًا داخل ما كان موجودًا بالفعل.

يعمل الموناد تمامًا مثل تلك الموجة الأولى. إنها اللحظة الأولى التي يدرك فيها الوعي غير المتمايز نفسه كشيء متميز، وليست ولادة الوعي، بل هي اللحظة التي يلاحظ فيها الوعي نفسه لأول مرة كمنفصل عن الكل السلس الذي سبقه.

ولهذا السبب تصف النصوص الغنوصية الموناد بعبارات متناقضة، غير مرئي، لا حدود له، بلا شكل. إنهم يصفون وعياً بدأ لتوه في التعرف على نفسه ولكنه لم يتخذ بعد أي شكل محدد. يشبه الأمر أن تكتشف نفسك في تلك اللحظة الفاصلة بين النوم العميق واليقظة عندما تعلم أنك موجود ولكنك لم تتذكر بعد من أنت أو أين أنت.

يصبح التسلسل المنطقي واضحاً تماماً عندما تنظر إليه بهذه الطريقة. أولاً، كان هناك وجود غير متمايز، تلك الحالة التي استكشفناها حيث لم يكن هناك مراقب لأنه لم يكن هناك شيء يمكن مراقبته ولا شيء يمكن فصله عنه. ثم جاءت اللحظة المحورية لإدراك الذات، الموناد، عندما ميز الوعي لأول مرة ذاته. لا يمكن أن يبدأ الانبثاق والخلق إلا بعد هذا الحد الأولي، لأنك تحتاج إلى نقطة مرجعية أولى للذات قبل أن تتمكن من الحصول على الآخر.

فكر فيما يعنيه هذا بالنسبة لكل ما تعلمناه عن الروحانية. حتى أسمى مفاهيمنا، كالاتحاد والوعي والإدراك الكوني والوحدة مع الإلهي، هي بالفعل على بعد خطوة واحدة من الحالة النهائية. كل ذلك يحدث ضمن الإطار الذي وضعه الموناد بعد رسم ذلك الحد الأول.

لقد اختبرت هذا الأمر بشكل مباشر خلال خلوة تأملية قبل عدة سنوات. كنت أتدرب لساعات، وأتنقل بين حالات مختلفة من الوعي الموسع. كانت هناك لحظة تلاشى فيها حتى الشعور بالوحدة مع كل شيء، ليس في اللاوعي، ولكن في شيء سابق للوعي لدرجة أنه لم تكن هناك تجربة يمكن الإبلاغ عنها، ولا تجربة يمكن تذكرها. عندما عاد الوعي، كان الأمر أشبه بمشاهدة الموناد وهو يظهر من جديد، تلك الومضة الأولى من "أنا" التي تنبثق من شيء لم يكن بحاجة إلى هوية.

يعمل الموناد كأول نقطة مرجعية مستقرة للوعي، وهو ما يفسر سبب ظهوره عبر التقاليد الروحية بهذا الاتساق. سواء أطلق عليه اسم الواحد في الأفلاطونية المحدثة، أو المصدر في تعاليم التوجيه، أو الله في المسيحية الصوفية، فإن هذه التقاليد تشير إلى نفس الظاهرة، تلك الحدود الأولى حيث يدرك الوعي نفسه على أنه متميز.

لكن هنا يصبح هذا الفهم مُحرِّراً للغاية. إذا كان الموناد بمثابة حد وليس نقطة أصل، فإن ما أنت عليه حقًا موجود قبل حتى أسمى الحالات الروحية. أنت لا تحاول الوصول إلى إنجاز روحي نهائي. أنت تدرك ما كان موجوداً بالفعل قبل وجود أي مفاهيم روحية.

هذا يغير مسار البحث الروحي بالكامل. بدلاً من الصعود نحو قمة بعيدة من التنوير، أنت تكتشف ما كان موجوداً هنا طوال الوقت، حتى قبل أن تبدأ الرحلة. الأمر أشبه بإدراكك أنك كنت تبحث عن نظارتك. لقد عملت مع طلاب التأمل الذين وصلوا إلى هذه الحالات ما قبل الموناد، وهم يصفون شيئًا متسقًا بشكل ملحوظ. لا يوجد نعيم، ولا وعي كوني، ولا إحساس بالاتحاد، لأن كل هذه تجارب تتطلب إطارًا خاصًا بالمُجرب. بدلاً من ذلك، هناك ما أسماه أحد الطلاب غياب الغياب، وليس الفراغ، بل الامتلاء الذي يوجد قبل أن ينشأ مفهوم الامتلاء أو الفراغ.

فكّر كيف سيغير هذا علاقتك بالممارسة الروحية. أنت لا تحاول الوصول إلى حالة خاصة أو أن تصبح مستنيراً. أنت ببساطة تُدرك ما هو موجود بالفعل قبل أن تتمكن أي حالة من الظهور.

إن أعمق أنواع التأمل لا يتعلق بالوصول إلى عالم متعالٍ. يتعلق الأمر بإدراك ما هو موجود هنا قبل أن يتم التمييز بين التسامي والوجود في حد ذاته. ويفسر هذا الفهم أيضاً سبب إبلاغ العديد من الممارسين المتقدمين عن تجاوزهم للتجارب الروحية التقليدية. إنهم لا يصبحون أكثر استنارة، بل يدركون ما هو موجود قبل الاستنارة كمفهوم.

يشبه الأمر اكتشاف الفضاء الذي تظهر فيه جميع التجارب الروحية وتختفي. إن الآثار العملية مذهلة. بدلاً من السعي إلى الاتحاد، فإنك تدرك ما هو موجود قبل أن يكون بالإمكان التمييز بين الاتحاد والانفصال. بدلاً من السعي وراء الوعي الأعلى، تكتشف ما هو واعٍ قبل أن يتخذ الوعي أي شكل معين. بدلاً من محاولة التواصل مع الإلهي، فإنك تدرك ما هو موجود قبل أن يتم تصور الألوهية والإنسانية على أنهما منفصلان.

عندما تستوعب هذا الأمر حقاً، ستلاحظ كيف يغير ذلك نهجك بالكامل في البحث الروحي. لم تعد تحاول الوصول إلى مكان ما أو أن تصبح شيئاً ما. أنت تبحث فيما هو موجود بالفعل، وما كان موجوداً طوال الوقت، وما سيكون موجوداً عندما ينتهي كل البحث.

ولهذا السبب فإن فهم الموناد كحدود بدلاً من كونه بداية أمر بالغ الأهمية. إنه يوجهك نحو ما أنت عليه بالفعل، وليس نحو ما قد تصبح عليه. وما أنت عليه كان موجوداً منذ ما قبل ظهور التمييز الأول، قبل ظهور الحد الأول، حتى قبل أن يظهر الموناد من ذلك الكمال الكامل غير المتمايز الذي سبق كل ما عرفته عن الوجود.

عندما تتحدث معظم التقاليد الروحية عن النور الإلهي باعتباره الحقيقة المطلقة، فإنها ترتكب خطأً جوهرياً يبقي الباحثين محاصرين في عالم الانبثاق بدلاً من الاقتراب من المصدر الحقيقي. النور ليس البداية، بل هو حركة بالفعل، وتعبير بالفعل، وخطوة بعيدة عما سبق الموناد.

فكّر فيما يحتاجه النور فعلاً لكي يوجد. إنه يحتاج إلى توجيه، حيث تنتقل الفوتونات من نقطة إلى أخرى. إنه يحتاج إلى حركة، طاقة تنتشر عبر الفضاء. إنه يحتاج إلى تباين، شيء ما لتسليط النور عليه، شيء ما لتمييز نفسه عنه. والأهم من ذلك، أن النور يتطلب التمييز بين الفاعل والمفعول به الذي استكشفناه سابقاً. لا بد من وجود مصدر ينبعث منه نور، وشيء ما يستقبله أو يعكسه.

لكن تذكر، قبل ظهور الموناد كأول حد فاصل، لم تكن أي من هذه الشروط موجودة. لم يكن هناك مجال للنور لينتقل من خلاله، ولا أشياء ليضيئه، ولا مراقب ليدركه. لا يمكن وصف الحالة ما قبل الموناد بأنها نور أو ظلام لأن كلا المفهومين يتطلبان إطارًا للتجلي لم يكن موجودًا بعد.

وهنا يكمن الالتباس في معظم الأطر الروحية. يفترضون أن النور الإلهي يمثل الحقيقة المطلقة لأن النور يبدو متعالياً مقارنة بالمادة العادية. لكن هذا يشبه الخلط بين أول تموج في بركة ماء وبين السكون الذي سبقه. النور، مهما كان راقياً أو إلهياً، يبقى مجرد انبثاق. لا يزال الأمر يتعلق بالموناد الذي يعبر عن نفسه، مما يخلق الحركة الأولى بعيدًا عن المصدر المطلق.

تأمل ما يحدث عندما يصف المتصوفون أعمق تجاربهم. إن أعمق الحالات التي يبلغون عنها ليست مليئة بالنور الساطع. إنها تتجاوز تماماً أي نقاط مرجعية بصرية أو حسية. كتب القديس يوحنا الصليب عن ليلة الروح المظلمة، ولكن حتى تسميتها بالظلام يغفل المغزى الحقيقي. الظلام هو ببساطة غياب النور، مما يعني أن النور يجب أن يكون موجودًا بالفعل كمفهوم حتى يكون للظلام معنى.

يشبه الأمر محاولة وصف حالة غرفة قبل اختراع الكهرباء. لا يمكننا أن نسميها ظلمة لأن الظلام يوحي بإمكانية وجود النور. لا يمكننا أن نسميه نورا لأن هذا الاحتمال غير موجود بعد. إنها سابقة للإطار الذي يجعل أيًا من الشرطين ذا معنى.

هذا الفهم يغير تماماً طريقة تعاملنا مع الممارسة الروحية. إذا كنت تسعى إلى النور الإلهي في التأمل، فأنت في الواقع تسعى إلى الانبثاق الإلهي وليس إلى المصدر. أنت تبحث عن تعبير الموناد بدلاً من البحث عما كان موجوداً قبل ظهور الموناد. يشبه الأمر محاولة العثور على المحيط من خلال دراسة الأمواج. أنت تفحص الحركة بدلاً من العمق. لقد رأيت عدداً لا يحصى من الممارسين يعلقون هنا. لديهم تجارب من النور الداخلي، ومشاعر التنوير، ورؤى من التألق، ويعتقدون أنهم لامسوا الحقيقة المطلقة.

لكن هذه التجارب، مهما كانت عميقة، لا تزال تحدث في إطار الذات والموضوع، والمراقب والمُراقَب. إن مجرد قدرتك على الإبلاغ عن رؤية النور يعني أن الثنائية الأساسية لا تزال قائمة. لا يمكن تصور الحالة ما قبل المونادية أو تخيلها أو تمثيلها بأي شكل من الأشكال لأن التمثيل نفسه يتطلب التمييز بين الذات والموضوع الذي لم يكن موجودًا بعد.

عندما تحاول تصور هذه الحالة، فأنت تعمل بالفعل ضمن إطار الموناد. أنت تستخدم الوعي لفحص ما سبق الوعي، وتستخدم أدوات التجلي لفهم ما كان موجودًا قبل أن يصبح التجلي ممكنًا.

ولهذا السبب تتخلى أكثر التقاليد التأملية تقدماً في نهاية المطاف عن جميع الصور، وجميع مفاهيم النور والظلام، وجميع الاستعارات البصرية تماماً. إنهم يدركون أن أعمق الحالات تنطوي على زوال كل نقطة مرجعية إدراكية.

في الزن، يسمون هذا الموت العظيم. في مذهب شيفا الكشميري، يوصف الأمر بأنه انهيار الذات العارفة. هذه ليست استعارات شعرية، بل هي أوصاف دقيقة لما يحدث عندما يقترب الوعي من الحالة ما قبل المونادية. لكن الأمر المثير للاهتمام هو أن هذه الأوصاف نفسها قاصرة لأنها لا تزال تستخدم لغة توحي بحدوث شيء ما لشخص ما. إن تلاشي نقاط المرجعية الإدراكية لا يزال يشير إلى عملية، وحركة، وما قبل وما بعد. تسبق الحالة ما قبل المونادية حتى إمكانية حدوث عملية أو تغيير.

وهذا له آثار عميقة على كيفية فهمنا للتطور الروحي. معظم المسارات تقود الممارسين في الواقع إلى أعماق تعبيرات الموناد بدلاً من التوجه نحو ما سبق الموناد. إنهم يستكشفون أشكالاً متزايدة الدقة من الانبثاق، وطاقات أدق، وحالات وعي أكثر رقياً، وتجارب أكثر سمواً من النور والنعيم.

لا يوجد خطأ في هذا الاستكشاف. إن تعابير الموناد رائعة، وفهمها بعمق يمكن أن يكون تحويليًا. لكن إذا أخطأنا في اعتبار هذه التعبيرات المصدر النهائي، فإننا نبقى داخل الحدود بدلاً من الاقتراب مما يقع وراءها. يصبح السؤال الحقيقي هو: هل يمكن للوعي البشري، الذي هو نفسه نتاج ظهور الموناد، أن يصل فعلياً إلى حالة ما قبل الموناد؟ أم أنه لا يستطيع إلا الاقتراب من حافة إمكانياته الخاصة، الحد الفاصل حيث يلتقي الموناد بما سبقه؟

هذا ليس مجرد تكهنات فلسفية، بل هو سؤال عملي يحدد كيف نوجه بحثنا الروحي بأكمله. عندما ندرك حقاً أن النور نفسه هو بالفعل انبثاق، وحركة مبتعدة عن المصدر، فإن ذلك يغير كل شيء. نتوقف عن البحث عن التجارب ونبدأ في استجواب المجرب. نتوقف عن محاولة الرؤية بشكل أوضح ونبدأ في فحص ما يجعل الرؤية ممكنة. نتوقف عن السعي وراء حالات متعالية ونبدأ في البحث عما يتبقى عندما تتلاشى جميع الحالات.

هذا هو الفرق بين البحث الروحي والفهم الروحي. يعمل السعي ضمن إطار الموناد، ويسعى دائماً إلى شيء أفضل وأعلى وأكثر تنويرا. إن الفهم يدرك أن ما نبحث عنه يسبق إمكانية البحث نفسها.

إليك شيء سيغير بشكل جذري طريقة فهمك للوجود نفسه. الوقت ليس حقيقياً بالطريقة التي تعتقدها. أنا لا أتحدث عن نظرية النسبية لأينشتاين أو ميكانيكا الكم. أنا أتحدث عن شيء أكثر عمقاً بكثير، وهو إدراك أن الزمن نفسه لا يصبح ممكناً إلا بعد حدوث التمايز الأول. فكر في هذا الأمر جيداً. لكي يوجد الزمن، أنت بحاجة إلى تسلسل، شيء يحدث قبل شيء آخر. لكن لكي يوجد تسلسل، أنت بحاجة إلى التغيير. ولكي يحدث التغيير، أنت بحاجة إلى التمايز، أي أن يصبح شيء ما متميزاً عن شيء آخر.

وهذا يخلق سلسلة منطقية تعود إلى الموناد التي ناقشناها سابقًا. يمثل الموناد تلك اللحظة الأولى التي يصبح فيها التمايز ممكناً، مما يعني أنها أيضاً اللحظة الأولى التي يصبح فيها الزمن ممكناً. قبل الموناد، لم يتغير شيء لأنه لم يتم تعريف أي شيء على أنه منفصل عن أي شيء آخر. هذا لا يتعلق بزمن طويل مضى. الأمر يتعلق بحالة سابقة لإمكانية وجود ما قبل وما بعد. نحن نتحدث عن الوجود قبل الإطار الذي يجعل المفاهيم الزمنية ذات معنى.

دعني أقدم لك مثالاً قد يساعدك في فهم هذا الأمر. تخيل أنك تستمع إلى نغمة واحدة ثابتة لا تتغير، ثابتة تمامًا، بدون أي اختلاف في درجة الصوت أو مستوى الصوت أو النبرة. والآن، تخيل أن هذه النغمة ليس لها بداية ولا نهاية. كيف يمكنك قياس مدتها؟ ما الذي ستستخدمه كنقاط مرجعية؟ بدون تغيير، وبدون تنوع، لا توجد طريقة حرفياً لتحديد مرور الزمن. إن النبرة ببساطة خالية من البعد الزمني.

ولهذا السبب تصف التقاليد القديمة الموناد بأنه أبدي، ليس لأنه يدوم إلى الأبد، ولكن لأنه يمثل العتبة التي يصبح عندها الاستمرار ممكناً. قبل هذا الحد، تصبح فئات المدة والتسلسل والتدفق الزمني بلا معنى. ليس الأمر أن الزمن كان يتحرك ببطء أو توقف، بل إن الظروف اللازمة للزمن لم تكن قد ظهرت بعد.

يمثل هذا تحدياً مثيراً للاهتمام بالنسبة للوعي البشري. إن تجربتنا بأكملها متأصلة بعمق في التسلسل الزمني لدرجة أننا نكافح من أجل تصور الوجود بدونه. كل فكرة تتبع فكرة أخرى. كل نفس يتبع النفس السابق. يبدو أن كل لحظة من الوعي تتدفق من الماضي عبر الحاضر نحو المستقبل. نحن كائنات زمنية نحاول فهم شيء ما قبل الزمن.

لكن هنا يصبح الأمر مثيراً للاهتمام حقاً بالنسبة للممارسة الروحية. تتحدث العديد من تقاليد التأمل عن تحقيق حالات لا تخضع للزمن، لكن معظم الناس يسيئون فهم معنى ذلك. يتخيلونها كلحظة حاضرة ممتدة، حاضر طويل حقاً حيث يفقد المرء إحساسه بالزمن. هذا ليس ما نتحدث عنه. اللازمن الحقيقي ليس حاضر ممتد. إنه يسبق الإطار الذي يجعل اللحظات ممكنة. لقد مررت بهذه التجربة بنفسي خلال خلوات التأمل العميق. هناك حالات يكون فيها الوعي موجودًا بشكل كامل، ولكن بدون أي إحساس بالمدة أو التسلسل. ليس الأمر أن الساعات تبدو كالدقائق أو أن الدقائق تبدو كالساعات. لا تزال تلك تجارب زمنية. الأمر هو أن الإطار الزمني بأكمله يتلاشى.

أنت لا تعيش لحظة حاضرة طويلة. أنت تلمس شيئًا موجودًا قبل إمكانية وجود اللحظات. وهذا يفسر سبب إبلاغ الناس في كثير من الأحيان عن هذا الشعور بالارتباك عند الخروج من هذه الحالات. الأمر لا يقتصر على فقدانهم الإحساس بالزمن فحسب، بل إنهم وصلوا مؤقتًا إلى نمط من الوعي يعمل خارج الفئات الزمنية تمامًا. عندما تعود إلى وعيك الطبيعي، عليك إعادة بناء علاقتك بالتسلسل والمدة.

يوفر النوم العميق نافذة أخرى لفهم هذا الأمر. أثناء النوم الخالي من الأحلام، يستمر الوعي في الوجود. نعرف ذلك لأننا نستيقظ كنفس الشخص مع استمرارية الهوية. لكن أثناء النوم العميق، لا يوجد إحساس بالمدة. لا تشعر بمرور 8 ساعات. لن تشعر بالآن الطويلة. الإطار الزمني ببساطة لا يعمل. هذا يعطينا لمحة عما قد يكون عليه الوجود ما قبل الزمني. على الرغم من أن النوم العميق أشبه بتعليق مؤقت بدلاً من كونه الحالة الأساسية قبل الزمنية التي نتحدث عنها. إن فهم هذا الأمر له آثار عميقة على كيفية تعاملنا مع الوقت في الحياة اليومية. معظم المعاناة النفسية تنطوي إما على القلق بشأن المستقبل أو الندم على الماضي. لكن إدراك أن الزمن نفسه ينشأ من التمايز، وأنه ليس أساسياً للوجود، يمكن أن يغير علاقتك بالقلق الزمني.

عندما تدرك أن أعمق مستوى من كيانك موجود قبل الزمن، فإن مخاوف المستقبل تفقد بعضاً من سيطرتها، ليس لأنك تصبح مهملاً في التخطيط، ولكن لأنك تدرك أن طبيعتك الأساسية ليست مهددة بالأحداث الزمنية.

الجزء منك الذي يوجد قبل الزمن لا يمكن أن يتضرر بما يحدث في الزمن. ولهذا السبب غالباً ما تركز ممارسات التأمل على الوعي باللحظة الحاضرة. إنها لا تعلمك فقط التركيز على الحاضر بدلاً من الماضي أو المستقبل. إنها يذيب تدريجياً ارتباطك بالتسلسل الزمني نفسه، مما يسمح لك بالوصول إلى شيء أعمق، وهو الوعي الموجود قبل ظهور إطار اللحظات.

لكن إليك ما هو بالغ الأهمية لفهمه. هذه الحالة ما قبل الزمنية ليست شيئًا تحققه أو تصل إليه. إنها ليست تجربة خاصة تحدث أثناء التأمل. إن ما أنت عليه قبل ظهور الإطار الزمني هو الذي يخلق وهم كونك ذاتًا منفصلة تتحرك عبر الزمن.

إن النور الذي ناقشناه في القسم السابق، ذلك الإشراق البدائي الذي يبدو أنه يمثل البداية، هو بالفعل محدد بالزمن. إنه حركة بالفعل، وتغيير بالفعل، وتسلسل بالفعل. قبل ذلك النور، قبل ذلك الانبثاق الأول، هناك شيء موجود خارج الإطار الزمني بأكمله.

هذا يغير بشكل جذري طريقة فهمنا للبحث الروحي نفسه. معظم الممارسات الروحية موجهة نحو تحقيق أهداف محددة. أنت تحاول الوصول إلى مكان ما، وتحقيق شيء ما، وأن تصبح شيئًا مختلفًا عما أنت عليه الآن.

لكن إذا كانت طبيعتك الأعمق موجودة قبل الزمن، فإنها موجودة أيضًا قبل إمكانية التقدم الروحي. لا يمكنك أن تصبح ما أنت عليه بالفعل قبل أن يصبح إطار العمل موجودًا.

يدعو هذا الفهم إلى اتباع نهج مختلف تمامًا للحياة الروحية، ليس كرحلة عبر الزمن نحو هدف، ولكن كإدراك لما لم يدخل أبدًا في مجرى الصيرورة الزمنية. إن الآثار المترتبة على ذلك تتجاوز بكثير الممارسة الشخصية. إذا كان الوعي نفسه موجودًا قبل الزمن، فإن الموت، الذي يبدو أنه الحد الزمني النهائي، يفقد حتميته. ليس لأن الوعي يستمر بعد الموت، ولكن لأن الوعي موجود قبل الإطار الزمني الذي يجعل ما بعد الموت ذا معنى.

هذا هو الإدراك العميق الذي ينتظرنا عندما نفهم حقًا ما كان موجودًا قبل الموناد، قبل التمايز، قبل ظهور الزمن نفسه. هذا شيء يطارد كل باحث روحي جاد، على الرغم من أن معظمهم لن يعترفوا بذلك. كلما تعمقت في البحث الروحي الأصيل، كلما أدركت أن ما تسعى إلى تذكره لا يمكن تذكره على الإطلاق بطبيعته.

هذا ليس مزحة كونية أو عيباً تصميمياً قاسياً. إنها استحالة هيكلية أساسية تكشف عن شيء عميق حول طبيعة الوعي نفسه. فكر في الأمر منطقياً. الذاكرة تحتاج إلى شخص يتذكرها. لكننا أثبتنا أنه قبل ظهور الموناد، وقبل ذلك التمايز الأول الذي يخلق إمكانية وجود شيء ما في علاقة مع شيء آخر، لم يكن هناك من يخوض التجارب، ناهيك عن تذكرها. إن الإطار الذي يجعل الذاكرة ممكنة لم يكن موجوداً ببساطة. يشبه الأمر سؤالك عما كنت تفعله قبل ولادتك، إلا أنه أكثر جذرية بشكل لا نهائي. على الأقل قبل ولادتك، كان لا يزال هناك كون، ولا يزال هناك زمن، ولا تزال هناك البنية الأساسية للوجود التي يمكن نظرياً أن تظهر فيها أنت.

لكن ما نشير إليه سبق حتى ظهور القدرة على الهوية نفسها. وهذا يخلق مفارقة محيرة لأي شخص يسلك طريقاً روحياً حقيقياً. لدينا هذا الشعور البديهي بأننا انفصلنا بطريقة ما عن مصدرنا، وأن التنوير يعني استعادة بعض الذكريات المفقودة عن طبيعتنا الحقيقية.

لقد بُنيت تقاليد روحية كاملة على هذا الافتراض، وهو أن الصحوة تتضمن تذكر من نحن حقًا. لكن إليكم ما اكتشفته من خلال سنوات من الممارسة التأملية والدراسة. إن أعمق الإدراكات الروحية لا تجلب معها ذكرى مصدرنا النهائي. بل إنها تنطوي على تفكيك الإطار الذي يجعل الذاكرة ممكنة. أتذكر أول مرة شعرت فيها بهذا الأمر حقاً أثناء التأمل. كنت جالساً لمدة ساعة تقريباً، وبدأ هيكل التجربة المعتاد القائم على العلاقة بين الذات والموضوع بالتلاشي تدريجياً. تلاشى إحساسي بمراقبة أنفاسي. اختفى الحد الفاصل بين الوعي ومحتوياته، ثم

لم يعد هناك شيء. ليس لا شيء بمعنى الفراغ أو العدم، بل لا شيء بمعنى الغياب التام لنقاط المرجعية التي من شأنها أن تسمح بتسجيل أي تجربة أو تذكرها.

عندما عاد الوعي الطبيعي، لم تكن هناك أي ذكرى لما حدث أثناء ذلك التلاشي. لم يكن الأمر أنني نسيت شيئاً. لم يكن هناك من هو حاضر ليخوض تجربة يمكن نسيانها. لقد توقفت آلية التجربة نفسها عن العمل مؤقتًا.

هذا ما يقصده المتصوفون عندما يتحدثون عن الصمت الروحي، ليس مجرد غياب الصوت أو الثرثرة الذهنية، بل غياب بنية الذات والموضوع التي تجعل أي شكل من أشكال التجربة ممكناً. إنه ليس فراغاً. إنه كامل بدون مرجع. لا ينقصه شيء. انه ما يسبق ذلك الإطار الذي يمكن من خلاله تحديد النقص أو الاكتمال. وهذا الصمت، وهذا التفكك للإطار التجريبي، هو أقرب ما يمكننا الوصول إليه للمس تلك الحالة البدائية التي كانت موجودة قبل ظهور الموناد. ليس لأننا نتذكره، ولكن لأننا نعود مؤقتًا إلى الحالة التي سبقت القدرة على التذكر نفسها.

إن هذا الفهم في الواقع يمنح شعوراً عميقاً بالتحرر، على الرغم من أنه قد يكون محبطاً في البداية. هذا يعني أننا لسنا بحاجة لاستعادة شيء فقدناه. إن ما نحن عليه حقًا لم يكن منفصلاً أبدًا عن مصدره، لأن الانفصال نفسه هو تطور لاحق، وهو شيء ظهر فقط بعد أن بدأ الهيكل الأساسي للوجود في التمايز. لم تسقط من مكانتك. مكانتك هي ما أنت عليه، قبل ظهورك أنت الذي قد يسقط. لم تنسَ طبيعتك الحقيقية. إن طبيعتك الحقيقية هي ما كان موجوداً قبل ظهور الآلية التي يمكنها النسيان.

وهذا له آثار جذرية على التأمل والممارسة التأملية. بدلاً من محاولة تذكر أو استعادة شيء ما، تصبح الممارسة متعلقة بالسماح للهياكل التي تحجب طبيعتنا الحقيقية بالتلاشي. الأمر لا يتعلق بالوصول إلى مكان ما أو تحقيق حالة خاصة. يتعلق الأمر بإدراك ما هو موجود بالفعل عندما يتلاشى مؤقتاً تأثير تجربة الذات والموضوع.

ولهذا السبب غالباً ما تبدو أعمق الحالات الروحية وكأن شيئاً لم يحدث. الشخص الذي كان سيسجل التجربة، والذي كان سيشكل ذكريات عنها، والذي كان سيقيم ما إذا كانت عميقة أم عادية، لم يعد هناك أحد ليخوض التجربة، ناهيك عن تذكرها. لقد جلست مع ممارسين متقدمين وصفوا عقودًا من ممارسة التأمل، وأفادوا بشكل شبه شامل أن أعمق إدراكاتهم تميزت بهذه الصفة المتمثلة في عدم حدوث أي شيء. ليس لأن شيئاً لم يكن يحدث، ولكن لأن الإطار الذي يمكن أن يحدث فيه شيء ما لشخص ما قد انهار.

ولهذا السبب تؤكد التقاليد الروحية على الاستسلام بدلاً من الجهد في أعمق تعاليمها. لا يمكنك العودة بالقوة إلى حالة سبقت وجودك أنت الذي تقوم بالقوة. لا يمكنك التفكير في طريق العودة إلى ما كان موجوداً قبل التفكير. لا يمكنك تذكر ما كان موجوداً قبل ظهور القدرة على التذكر. ما يمكنك فعله هو إدراك أن البحث نفسه ينشأ من داخل ما تبحث عنه. إن الوعي الذي يبحث عن مصدره هو في حد ذاته ذلك المصدر، قبل حركة البحث. إن الوعي الذي يريد أن يتذكر أصله هو بالفعل ذلك الأصل، قبل الانقسام إلى متذكِر ومتَذكَر.

هذا الإدراك لا يأتي على شكل ذكرى أو تجربة. ويأتي ذلك على شكل تفكك الإطار الذي تنشأ فيه الذكريات والتجارب. وفي ذلك التحلل، يتجلى ما أنت عليه، ليس كشيء يمكنك معرفته، ولكن كما أنت قبل ظهور المعرفة نفسها.

إن أعمق إدراك روحي ليس تذكر من أنت. إنها إدراك أن ما أنت عليه لا يمكن تذكره لأنه لم يُنسَ أبدًا. لا يمكن العثور عليه لأنه لم يضيع أبدًا. لا يمكن تجربته لأنه هو ما يجعل التجربة ممكنة.

ولهذا السبب فإن الطريق الذي لا مسار له لا يؤدي إلى تذكر عظيم، بل إلى إدراك أن ما تبحث عنه هو ما يبحث، قبل ظهور الباحث والمطلوب.

إليكم شيئًا يغير تمامًا طريقة فهمنا للتحرر الروحي. إن القوى التي تسعى للسيطرة على الوعي والتلاعب به، والتي أطلق عليها الغنوصيون اسم "الأركونات"، لا يمكنها حرفياً العمل في الحالة ما قبل المونادية. لقد اصطدموا بجدار مسدود هناك، وفهم السبب يكشف عن أعمق ملاذ متاح للوعي البشري.

فكّر في كيفية عمل نظام التحكم في الواقع. كل شكل من أشكال التلاعب، سواء كنا نتحدث عن التلاعب النفسي، أو السيطرة السياسية، أو ما اعتبره الغنوصيون قوى كونية للهيمنة، يتطلب نفس المكونات الأساسية. أنت بحاجة إلى شخص تتحكم به وشخص آخر يتم التحكم به. أنت بحاجة إلى تسلسل هرمي يتضمن من يقود ومن يطيع. أنت بحاجة إلى أنظمة ذات قواعد وهويات يمكن تهديدها أو مكافأتها.

إن الأركونات، وأنا أستخدم هذا المصطلح سواء فهمتها ككيانات حرفية أو كاستعارات للقوى المسيطرة، تعتمد كلياً على عالم التمايز. إنهم يحتاجون إلى تقسيم الموضوع إلى فاعل ومفعول به لكي يعملوا. إنهم يتطلبون وجود ذوات منفصلة يمكن التأثير عليها أو تهديدها أو إغواؤها. إنهم يعتمدون على الوقت لخلق شعور بالإلحاح، وعلى الذاكرة لتأسيس التكييف، وعلى الهوية لتوليد الخوف من الفقدان.

لكن الأمر اللافت للنظر هو التالي. جميع هذه الأدوات للتحكم هي تطورات ما بعد المونادية. لا تظهر إلا بعد أن تبدأ الوحدة الأصلية بالفعل في التمايز إلى عالم الأشياء المنفصلة. لا تحتوي الحالة ما قبل المونادية على أي من نقاط التأثير هذه، لأنها تسبق الإطار الذي يصبح فيه التحكم ممكناً. لنأخذ مثالاً ملموساً. تعتمد أساليب التلاعب النفسي على استغلال ارتباطاتنا ومخاوفنا وشعورنا بالهوية. قد يُهدد المتلاعب سمعتك وأمنك وعلاقاتك. لكن ماذا يحدث عندما تلمس حالة لا يوجد فيها ذات منفصلة تهددها، حيث لا يوجد أنت متميز عن كل شيء آخر يمكن أن يخسر شيئًا أو يكسب شيئًا؟ لا يوجد لدى التلاعب أي شيء يمكن التمسك به. هذا ليس مجرد كلام نظري. كل من جرب حالات التأمل العميق يعرف هذا بشكل مباشر.

في حالة الانغماس العميق، لا يوجد حرفياً أي شيء يمكن أن تؤثر فيه المؤثرات الخارجية. إن بنية الذات التي توفر عادةً واجهة التأثير تتلاشى زمنيا. لا يمكنك التلاعب بشخص غير موجود ككيان منفصل. ما يجعل هذا الأمر أكثر إثارة للاهتمام هو كيف يفسر شيئًا استكشفناه سابقًا حول الذاكرة. تذكر كيف اكتشفنا أن الحالة ما قبل

المونادية لا يمكن تذكرها لأن الذاكرة تتطلب بنية الذات والموضوع. حسناً، هذا المبدأ نفسه يعني أنه لا يمكن السيطرة عليه لأن السيطرة تتطلب نفس البنية.

في الفهم الغنوصي، تعتبر الأركونات طفيلية في جوهرها. إنهم يتغذون على الطاقة الناتجة عن الانفصال والصراع واللاوعي. إنهم يزدهرون على دراما الوعي المنقسم، والدورة اللانهائية من الرغبة والخوف، والسعي والتجنب التي تميز النشاط العقلي العادي.

لكن الطفيليات تحتاج إلى مضيف، والحالة ما قبل المونادية لا توفر لها مضيفا لتلتصق به. وهذا له آثار عميقة على كيفية تعاملنا مع الممارسة الروحية. عندما يدرك معظم الناس وجود مؤثرات مسيطرة في حياتهم، سواء كانت شخصية أو اجتماعية أو روحية، فإنهم يرغبون بشكل طبيعي في محاربتها. لكن القتال في الواقع يعزز البنية الثنائية التي تعتمد عليها هذه القوى. عندما تقاوم شيئًا ما، فأنت تؤكد حقيقة الانفصال بينك وبين ما تقاومه.

ولهذا السبب تؤكد أعمق التقاليد الروحية على الاستسلام والتخلي بدلاً من المقاومة. إنها لا تعلم السلبية أو الضعف. إنها تشير إلى شيء أكثر جذرية. إنها تشير إلى أن الاستجابة الأكثر فعالية للسيطرة هي لمس ما يسبق الإطار الذي تكون فيه السيطرة ممكنة. فكر في القلق، على سبيل المثال. يتطلب القلق وجود مستقبل للقلق بشأنه وذات قد تكون مهددة في ذلك المستقبل. عادةً ما ينطوي الاكتئاب على ماضٍ يطارد الذات الحالية بالندم أو الخسارة. كلاهما يعتمد كلياً على البنية الزمنية المتمايزة للوعي.

عندما تصل إلى حالة ما قبل المونادية، لا يوجد وقت للقلق ليسقط فيه ولا توجد ذات منفصلة ليصيبها الاكتئاب. لا يتعلق الأمر هنا بالتسامي الروحي أو تجنب التحديات الحقيقية للحياة. يتعلق الأمر باكتشاف أن الشفاء الأعمق غالباً ما ينطوي على عدم إصلاح أو تغيير أي شيء، بل على لمس شيء ما قبل الإطار الذي توجد فيه المشاكل. يشبه الأمر اكتشاف أنه بدلاً من إعادة ترتيب الأثاث في منزل يحترق، يمكنك الخروج من المنزل بالكامل.

الآثار العملية استثنائية. عندما تدرك أن هناك جانبًا من كيانك متحرر بطبيعته من أي شكل من أشكال السيطرة أو التلاعب، فإن ذلك يغير كل شيء في كيفية تعاملك مع الحياة. لم تعد تعتمد على الظروف الخارجية لتحقيق رفاهيتك الأساسية، لأنك لمست شيئًا موجودًا قبل علاقة الذات -الموضوع حيث يمكن للظروف أن تؤثر عليك.

يوفر هذا ملاذاً حقيقياً دون أن يكون هروباً من الواقع. أنت لا تتجنب تحديات الحياة. أنت تكتشف المصدر الذي تنبثق منه المرونة الحقيقية بشكل طبيعي. عندما تدرك من خلال التجربة أن طبيعتك العميقة لا يمكن أن تتأثر بأي قوة مسيطرة، يمكنك التفاعل مع العالم من منطلق الحرية الحقيقية بدلاً من الدفاعية الانفعالية.

فهم الغنوصيون هذا على أنه السر الذي يرغب الأركونات بشدة في إخفائه، وهو أن هناك شيئًا ما في الوعي البشري يسبق نطاق عملهم بأكمله. ولهذا السبب، في علم الكونيات الخاص بهم، يعمل الأركونات بجد لإبقاء الوعي محاصرًا في التماهي مع الذات المنفصلة، ومع الزمن، ومع الدورة اللانهائية للمشاكل والحلول. لكن إليكم ما يحول هذا من مجرد فلسفة إلى واقع معاش. يمكنك التحقق من ذلك مباشرة. في أي لحظة من الحضور

الكامل، في أي لحظة يصبح فيها العقل ساكناً تماماً، فإنك تلمس هذا الملاذ. الأمر ليس في مكان آخر أو شيء تحتاج إلى تحقيقه. هذا ما أنت عليه قبل أن تصبح شخصًا يمكن السيطرة عليه.

هذا الفهم يُحدث ثورة في الممارسة الروحية، لأنه يكشف أن التحرر لا يتعلق بالتحرر من القوى المسيطرة. الأمر يتعلق بإدراك ما لم يكن مقيداً بهم أصلاً.

إليكم شيئًا قد يقلب كل ما تعتقدون أنكم تعرفونه عن الصحوة الروحية رأسًا على عقب. إن الهدف النهائي ليس كما تدعي معظم التقاليد. ربما يعدك كل مسار روحي صادفته بنوع من الوعي بالاتحاد، تلك اللحظة المتعالية التي يتلاشى فيها كل انفصال وتدرك أن كل شيء واحد.

إنها ذروة التجربة التي يصفها المتصوفون عبر الثقافات، الموجة التي تكتشف محيطها، والقطرة التي تندمج مع البحر اللامتناهي. نعم، هذه التجارب عميقة. بإمكانها أن تحطم إحساسك بكونك ذاتاً منفصلة وتكشف عن الترابط بين كل الوجود. لكن هنا يصبح الأمر مثيراً للاهتمام، وهنا يتعثر معظم الباحثين. وعي الاتحاد، مهما كان توسعي ، لا يزال تجربة. وأي تجربة، بحكم تعريفها، تتطلب أن يمتلكها شخص ما. لا يزال هناك إطار دقيق بين المُجرِب والمُجَرَب، حتى عندما يكون ما يتم تجربته هو الاتحاد نفسه.

يشير الفهم الغنوصي إلى شيء يسبق هذا الإطار بأكمله. الأمر لا يتعلق بتحقيق الاتحاد، بل يتعلق بإدراك ما لم يكن منقسماً أصلاً. هناك فرق جوهري هنا يغير كل شيء. الفرق بين الاتحاد وعدم الانقسام. فكر في الأمر بهذه الطريقة. الاتحاد يشبه جميع الأمواج في المحيط التي تتعرف فجأة على مياهه. إنه إدراك جميل، ولكنه لا يزال يعمل في سياق الأمواج والمحيط. عدم الانقسام هو ما يوجد قبل أن يتشكل المحيط نفسه، قبل أن يكون هناك حتى إمكانية وجود أمواج أو ماء أو الفضاء الذي يحتويهما.

هذا ليس مجرد جدال فلسفي عقيم. هذا الفهم يغير تماماً طريقة تعاملك مع الممارسة الروحية. معظم الباحثين عن الحقيقة يرهقون أنفسهم في محاولة تحقيق تجارب الاتحاد والحفاظ عليه. يتأملون لساعات محاولين إعادة خلق تلك اللحظة التي تلاشت فيها الحدود. إنهم يسعون وراء حالات الذروة ويقيسون تقدمهم بمدى قدرتهم على لمس ذلك الشعور بالاتحاد الكوني.

لكن ماذا لو لم يكن من الضروري تحقيق ما أنت عليه حقاً لأنه لم يُفقد أبداً؟ ماذا لو كان السعي لتحقيق الاتحاد مبنياً على سوء فهم جوهري؟

إن الحالة ما قبل المونادية التي تشير إليها النصوص الغنوصية ليست شيئًا يمكنك تجربته لأنها هي ما يجعل التجربة ممكنة. إنها ليست حالة يمكنك دخولها لأنك لم تغادرها قط. عندما تحرك الموناد لأول مرة نحو الوعي الذاتي، مما أدى إلى إنشاء الإطار الأولي للعارف والمعروف، كان بالفعل حركة ابتعاد عن هذا المصدر غير المنقسم.

ولهذا السبب غالباً ما تبدو أعمق الإدراكات الروحية وكأنها ليست شيئاً مميزاً. يصف الناس صحوتي العميقة بأنها عادية بشكل مخيب للآمال، ليس لأنها غير مهمة، ولكن لأنها تمس ما كان موجودًا بالفعل. لا يوجد عرض للألعاب النارية لأنك لا تحصل على شيء جديد. أنت ببساطة تُدرك ما لم يكن غائباً أبداً. لقد رأيت عدداً لا يحصى من الباحثين يصابون بالإحباط بسبب هذا. لقد مروا بتجارب اتحاد قوية، ولحظات من الوعي الكوني حيث تلاشت الهوية الشخصية تمامًا، ويتوقعون أن يكون الإدراك النهائي أكثر روعة. بدلاً من ذلك، غالباً ما يصفونها بأنها نوع من لحظة "هل هذا كل شيء؟".

قد يبدو الإدراك العميق وكأنه أكثر شيء طبيعي في العالم. وهذا يرتبط بسبب ظهور النصوص الغنوصية في كثير من الأحيان وكأنها تتناقض مع نفسها أو تشير إلى ما هو أبعد من تعاليمها الخاصة. إنهم يستخدمون المفاهيم لتوجيه الانتباه إلى ما هو أبعد من النطاق الذي يمكن أن تعمل فيه المفاهيم. الأمر أشبه باستخدام إصبع للإشارة إلى القمر. الإصبع ليس هو القمر، وفي النهاية عليك أن تنظر إلى ما هو أبعد من الإصبع تماماً.

يكرر كتاب يوحنا السري هذا الأمر مراراً وتكراراً. يصف المصدر ما قبل الموناد بتفصيل دقيق، ثم يذكر على الفور أنه يتجاوز كل وصف. الأمر لا يتعلق بالتناقض من أجل التأثير الدرامي، بل باستخدام اللغة للإشارة إلى ما هو أبعد من اللغة نفسها.

تتناول تقاليد أخرى هذا الفهم نفسه، على الرغم من أنها قد لا تعبر عنه بشكل مباشر. إن تركيز الزن على العقل العادي يبرز هنا. يشير إدراك أدفايتا أنك بالفعل ما تبحث عنه إلى هذه النقطة. حتى التقاليد الصوفية المسيحية تتحدث عن ظلام إلهي يسبق نور الخلق.

الآثار العملية هائلة. بدلاً من محاولة تحقيق حالات خاصة، تصبح الممارسة متعلقة بإدراك ما لم يكن غائباً أبداً.

بدلاً من البحث عن تجارب الاتحاد، فإنك تستكشف ما يتبقى عندما يتلاشى الإطار الكامل للتجربة. بدلاً من أن تصبح شيئاً ما، تكتشف ما لم تكن عليه أبداً. هذا ليس عدميًا أو فارغًا ، على الرغم من أنه قد يبدو بهذه الطريقة للعقول المشروطة بالسعي وراء الاستحواذ والإنجاز.

أن حالة ما قبل الموناد ليست فراغًا، إنها كاملة بدون مرجع. إنها ليست فارغة، بل هي ما قبل اللوحة التي يمكن أن يظهر عليها الفراغ أو الامتلاء. عندما تلمح هذا الفهم، قد يبدو البحث الروحي برمته فجأة ضرورياً للغاية وعبثياً تماماً. ضروري لأنه الحركة التي توصلك إلى هذا الإدراك. هذا أمر سخيف لأن ما تبحث عنه لم يكن مخفياً أبداً.

ولعل هذا هو السبب في أن الأركونات التي ناقشناها سابقاً لا تستطيع أن تمس هذا البعد من كيانك. تتطلب السيطرة الثنائية، أي المسيطر والمسيطر عليه. تتطلب عملية التلاعب فصلاً بين المتلاعب والضحية.

لكن في المصدر غير المنقسم، لا يوجد موطئ قدم لأي قوة تعتمد على الانقسام . لا يمكنك تذكر هذه الحالة، كما استكشفنا من قبل، لأن الذاكرة تتطلب الوقت والهوية. لا يمكنك الحفاظ عليها لأن الحفاظ عليها يعني أنه يمكن أن تضيعها. لا يمكنك تحقيق ذلك لأن الإنجاز يعني غيابه، ولا يمكنك خسارته لأنه ما أنت عليه قبل أن يتشكل الشخص الذي يمكن أن يفقد أي شيء.

لا تهدف الدعوة إلى فهم هذا فكرياً، مع أن الفهم قد يرشد إلى الطريق. إن الدعوة هي للبحث فيما يتبقى عندما يتلاشى حتى الإطار الذي يجعل الاتحاد ممكن. ما الذي يوجد هنا قبل أن تبدأ التجربة؟ ما الذي يكون موجوداً قبل أن يتخذ الوجود نفسه شكلاً؟ هنا تكشف الروحانية الغنوصية عن أكثر رؤاها جذرية. إن الهدف يتجاوز حتى أسمى الإنجازات الروحية. وراء التنوير، وراء الاتحاد، وراء حتى نور الوعي نفسه، يبقى شيء غير منقسم وكامل. وهذا الشيء هو ما كنت عليه دائماً.

اسمع، أريد أن أشاركك شيئاً سيُشكك في كل ما تعتقد أنك تعرفه عن الإنجاز والاكتمال. لقد كنا نستكشف هذه الحالة ما قبل المونادية، هذا الوعي الذي كان موجودًا قبل الله، قبل النور، قبل الزمن نفسه. والآن علينا أن نتعامل مع الجانب الأكثر إثارة للدهشة على الإطلاق. كانت هذه الحالة كاملة، ليست كاملة بأي طريقة نفهم بها الاكتمال، ولكنها كاملة بطريقة تجعل إطار عملنا بالكامل في السعي والإنجاز، حسناً، عفا عليه الزمن.

فكّر في كيفية فهمك للكمال الآن. عندما تشعر بالاكتمال، فذلك لأنك جمعت كل القطع، أليس كذلك؟ لقد حققت أهدافك، وعشتَ ما كنت ترغب في تجربته، وربما وصلت إلى حالة من امتلاك كل شيء. حتى أسمى مفاهيمنا الروحية عن الكمال تتضمن فكرة الامتلاء هذه، والامتلاء بالنور الإلهي، وتحقيق الاتحاد مع كل شيء، والتنوير.

لكن إليكم ما هو ثوري بشأن حالة ما قبل المونادية. لم يكن كاملاً لأنه كان يحتوي على كل شيء. لقد كان الأمر كاملاً لأنه سبق الإطار الذي يمكن أن يوجد فيه الامتلاك والنقص. دعني أقدم لك تشبيهاً قد يساعد في حل هذه المشكلة. فكر في النوم العميق. في النوم العميق، لا تدرك أنك تفتقد أي شيء. لا يوجد شعور بالنقص لأنه لا يوجد وعي بالحاجة إلى الإكمال. لكن دعونا نأخذ هذا الأمر إلى أبعد من ذلك بكثير. لم تكن الحالة ما قبل المونادية غير مدركة للنقص فحسب، بل كانت موجودة قبل الإطار الذي كان فيه النقص ممكناً. يشبه الأمر تخيل الكمال الذي لا يعرف أنه كامل لأنه لا يوجد شيء يمكن أن يكون كاملاً بالنسبة إليه.

هنا تبدأ عقولنا بالتمرد لأننا مبرمجون للغاية على فهم كل شيء من حيث العلاقات والمقارنات والتقدم. نعتقد أن الشيء يكون كاملاً عندما يحقق الامتلاء بالنسبة للفراغ، وعندما يصل إلى النهاية بالنسبة للبداية، وعندما يجد الاتحاد بعد تجربة الانفصال.

لكن ما نشير إليه هنا سبق كل هذه النقاط المرجعية. وهذا الفهم ثوري تماماً بالنسبة لكيفية تعاملنا مع حياتنا بأكملها. فكّر في سعيك، سواء كان روحياً أو مادياً أو عاطفياً، أياً كان شكله. الأمر كله مبني على هذا الافتراض

الأساسي بأنك غير مكتمل وتحتاج إلى إيجاد شيء ما، وتحقيق شيء ما، وأن تصبح شيئًا ما. تتأمل لتجد السلام. أنت تعمل لتحقيق الأمن. أنت تحب تجربة التواصل. تنمو روحياً لتصل إلى التنوير.

لكن ماذا لو كان ما أنت عليه حقًا يسبق الإطار الذي يكون فيه النقص ممكنًا؟ أنا لا أتحدث عن التفكير الإيجابي أو إقناع نفسك بأنك مثالي بالفعل. الأمر أعمق من ذلك بكثير. إذا كانت طبيعتك الأساسية هي ما كان موجودًا قبل الموناد، قبل أول حركة للوعي التي خلقت إمكانية الذات والموضوع، والنفس والآخر، والكامل والناقص، فإن البحث نفسه يستند إلى سوء فهم أساسي.

الآن، قبل أن يتبادر إلى ذهنك فكرة "حسنًا إذًا، يجب أن أتوقف عن المحاولة ولا أفعل شيئًا". وأود أن أتوخى الوضوح في هذا الشأن. هذا الفهم لا يؤدي إلى السلبية أو العدمية. في الواقع، الأمر عكس ذلك تماماً. عندما تفهم حقًا اكتمالك الأساسي، ليس كإنجاز، بل كحالة سابقة، فإن ذلك يحرر طاقة هائلة للانخراط الحقيقي في الحياة. لم تعد تحاول الوصول إلى مكان ما أو أن تصبح شخصًا ما. أنت تعبر عما أنت عليه بالفعل.

فكر في الفرق بين موسيقي يحاول بشدة إثبات قيمته من خلال موسيقاه، وموسيقي يعرف قيمته ويعبر عنها ببساطة. أما الثاني فيخلق من الكمال، لا من النقص. هذا ما يجعل فهم طبيعتك ما قبل المونادية ممكناً.

وهذه نقطة حاسمة أخرى. لا يمكن تحسين هذه الحالة أو تطويرها، ليس لأنها مثالية. إن الكمال يستلزم وجود مقياس للنقص يُقاس به، ولكنه يسبق الإطار الثنائي حيث يكون التحسين منطقياً. لا يمكنك تحسين الحالة ما قبل المونادية أكثر مما يمكنك جعل الفضاء أكثر اتساعًا. إنه ليس شيئًا يمكن تعديله. إنه السياق الذي تظهر فيه جميع التعديلات.

وهذا له آثار عملية هائلة. تأمل علاقتك بالطموح. معظم الطموحات مدفوعة بهذا الشعور الكامن بأن هناك شيئًا مفقودًا، وأنك بحاجة إلى تحقيق شيء ما لتكون مكتملًا. لكن عندما تدرك اكتمالك الأساسي، يتغير الطموح. لم يعد الأمر مجرد تشبث يائس. يصبح ذلك تعبيراً إبداعياً. أنت لا تحاول سد ثغرة. أنت تسمح للكمال بالتجلي. أو فكر في الرغبة. عادةً ما نعتبر الرغبة دليلاً على عدم اكتمالنا. نريد شيئًا ما لأننا لا نملكه. لكن من منظور فهم الكمال ما قبل المونادي، تصبح الرغبة شيئاً مختلفاً تماماً. إنها ليست علامة على النقص. إنها الدافع الإبداعي للكمال الذي يعبر عن نفسه في الشكل. حتى ذلك الشعور الدائم في الخلفية بأن شيئًا ما مفقود، وذلك الاستياء الغامض الذي يدفع الكثير من سعينا، يتم إعادة وضعه في سياق جديد تمامًا.

هذا الشعور ليس دليلاً على أنك بحاجة إلى إيجاد شيء ما. إنه في الواقع محاولة لإدراك طبيعتك الحقيقية، مهما كانت خافتة، من خلال متاهة التماهي مع النقص. ولهذا السبب تؤكد أعمق التعاليم الروحية على الوجود بدلاً من التطور، وعلى الحضور بدلاً من التقدم. إنها تشير إلى هذا الكمال ما قبل المونادي، ليس كهدف يجب تحقيقه، ولكن كإدراك بما لم يضيع في الواقع.

أدرك الغنوصيون هذا الأمر. لم يكن هدفهم الوصول إلى الكمال من خلال الممارسة الروحية. كان الهدف هو إدراك الكمال الذي سبق الخطأ الكوني الذي خلق وهم عدم الاكتمال في المقام الأول. لم يكونوا يحاولون العودة إلى جنة عدن. كانوا يدركون ما كان موجوداً حتى قبل زراعة الحديقة. وهنا تكمن المفارقة الجميلة. إن إدراك هذا الاكتمال لا ينهي الانخراط في الحياة. إنه يُغيّرها. عندما تتوقف عن السعي إلى الإنجاز من خلال التجربة، تصبح حراً في الانخراط في التجربة لذاتها. تصبح الحياة لعباً بدلاً من عمل، وتعبيراً بدلاً من اكتساب، واحتفالاً بدلاً من تعويض.

إن أعمق دعوة ليست أن تصبح كاملاً، بل أن تدرك الكمال الذي لم يكن مهدداً في الواقع بأي تجربة من عدم الاكتمال. هذا الإدراك يغير كل شيء بينما لا يغير شيئاً على الإطلاق. ما استكشفناه معًا ليس فلسفة أكاديمية أو تكهنات صوفية. إنه الفهم الأكثر عملية الذي يمكنك أن تصادفه.

عندما تدرك حقًا أن ما أنت عليه موجود قبل الموناد، قبل الله، قبل النور، قبل الزمن نفسه، فإن كل شيء يتعلق بكيفية تعاملك مع الحياة يتغير بشكل جذري. يقضي معظم الناس حياتهم بأكملها في محاولة أن يصبحوا شيئاً ما. يسعى الباحثون الروحيون إلى التنوير. يسعى المحترفون إلى تحقيق النجاح. تعد العلاقات بالاكتمال. لكن إذا كانت طبيعتك الأساسية قد سبقت كل مظاهر الوجود، بل وسبقت حتى أول بادرة للوعي الإلهي، فأنت في الواقع لا تحاول الوصول إلى أي مكان. أنت تدرك ما لم يكن غائباً أبداً.

هذا الإدراك يذيب الإطار الكامل الذي يجعل البحث ضرورياً. الأمر لا يتعلق بتحقيق هدف روحي معين. يكمن الأمر في أنك تكتشف زيف الافتراض القائل بوجود هدف كان ينبغي تحقيقه أصلاً.

لقد فهم الغنوصيون هذه المفارقة بعمق. لم يكونوا يحاولون العودة إلى الله. كانوا يدركون ما كان موجوداً قبل أن يظهر الله من المصدر المجهول. فكّر في كيف سيغير هذا علاقتك بالممارسة الروحية. عندما تمارس التأمل، فأنت لا تحاول خلق حالة خاصة. عندما تدرس تعاليم الحكمة، فأنت لا تجمع المعرفة الروحية لتغيير نفسك. تصبح الممارسة تعبيراً طبيعياً عما أنت عليه بالفعل، مثل طائر يغني عند الفجر. لا يغني الطائر ليصبح أكثر شبهاً بالطيور. تنشأ الأغنية بشكل عفوي من طبيعته.

لكن هنا يقع الناس في حيرة من أمرهم في كثير من الأحيان. إنهم يخشون أن يؤدي فهم طبيعتهم الحقيقية إلى أن تصبح الممارسة الروحية بلا معنى. في الواقع، يحدث العكس. تصبح الممارسة أكثر أصالة بشكل لا نهائي لأنها لم تعد مدفوعة بالطاقة اليائسة لمحاولة إصلاح أو تحسين الذات. قد تستمر في التأمل، لكن الأمر الآن أشبه بالفضاء الذي يستمتع باتساعه الخاص. قد تستمر في الدراسة، لكن الأمر الآن أشبه بوعي يستكشف أعماقه الخاصة. تتغير حياتك اليومية بطرق دقيقة وثورية في آن واحد. ذلك القلق الذي يحرك معظم السلوك البشري، والشعور بأن هناك خطأً جوهرياً أو شيئاً مفقوداً، يبدأ في التلاشي. ليس لأن ظروفك تصبح مثالية، ولكن لأن التوجه الأساسي الذي خلق القلق قد تم كشفه. عندما تكون عالقاً في زحام المرور، بدلاً من ذلك الإحباط المألوف الناجم عن فكرة أنه يجب أن تكون في مكان آخر، هناك إدراك بأن هذه اللحظة، وهذه التجربة، هي أيضاً تعبير عن نفس المصدر غير المنقسم. حركة المرور لا تؤثر عليك. إنها تظهر ضمن نفس مستوى الوعي الذي أنت

عليه. تتغير علاقاتك بشكل جذري عندما يتم إدراك الفصل الأساسي بين الذات والآخر. يصبح الاهتمام بالآخرين أمراً طبيعياً مثل الاهتمام بالنفس. ليس لأنك طورت المزيد من التعاطف من خلال الجهد، ولكن لأن الحدود التي جعلت الآخرين يبدون منفصلين كانت دائماً مفاهيمية.

لا يتعين على الأم أن تبذل جهداً لتشعر بالشفقة تجاه طفلها الباكي. تكون الاستجابة فورية وطبيعية لأن الشعور بالانفصال ضئيل للغاية. يكتسب العمل طابعاً مختلفاً تماماً. سواء كنت معلماً أو محاسباً أو فناناً، يصبح النشاط تعبيراً عن الوعي الذي يستكشف نفسه من خلال الشكل.

لقد عبّر الشاعر الصوفي الرومي عن هذا بشكل جميل عندما كتب عن الله الذي يختبر العالم من خلال الحواس البشرية، لكن الفهم الغنوصي أعمق من ذلك. إنه المصدر الإلهي السابق الذي يعبر عن نفسه من خلال رقصة التجلي بأكملها. هذا الفهم يجلب ما أسميه الحرية الحقيقية. ليس المقصود هنا حرية المراهقين في فعل ما يحلو لهم، بل التحرر من القلق الأساسي الذي يحرك معظم السلوك البشري. التحرر من الشعور الدائم بأنك بحاجة إلى أن تكون في مكان آخر، أو مع شخص آخر، أو مع شيء آخر. التحرر من مشروع تحسين الذات المرهق.

كثيراً ما يسألني الناس عما إذا كان هذا يعني أن تصبح سلبياً، إذا لم يعد شيء مهماً. لكن هذا سوء فهم تام. ما يحدث هو أن الفعل ينشأ بشكل أكثر عفوية، وبشكل أكثر ملاءمة، لأنه لا يتم ترشيحه من خلال تشويه الذات المنفصلة التي تحاول حماية نفسها أو تعزيزها. أنت تستجيب للحياة بدلاً من أن تتفاعل بناءً على التنشئة.

المفارقة هي أن إدراك طبيعتك الحقيقية يغير كل شيء ولا يغير شيئاً في الوقت نفسه. كل شيء يتغير لأن الشعور بالانفصال الذي كان يحرك معظم سلوكك يتلاشى.

إن القلق المستمر في الخلفية بشأن ما إذا كنت جيدًا بما فيه الكفاية، وناجحًا بما فيه الكفاية، وروحيًا بما فيه الكفاية، كل ذلك يتلاشى. لا شيء يتغير لأن ما أنت عليه حقاً لم يكن مهدداً أو غائباً في الواقع.

ولهذا السبب تحدث الغنوصيون عن الصحوة على أنها تذكر وليست تحولاً. أنت لا تقوم بتطوير قدرات جديدة. أنت تُدرك قدرات لم تكن غائبة في الواقع. كما أن الفضاء لا يحتاج إلى أن يصبح أكثر اتساعاً، أو أن الصمت لا يحتاج إلى أن يصبح أكثر هدوءاً.

لكن إليك ما هو بالغ الأهمية لفهمه. هذا ليس اعتقاداً يُتبنى ولا فلسفة تُتبنى. توجد المعتقدات في العقل، والعقل نفسه هو تجلي ظهر بعد فترة طويلة من حقيقتك. يتبلور هذا الإدراك بشكل طبيعي عندما يهدأ العقل الباحث بدرجة كافية. عندما ينفد الجهد المستمر لتحقيق شيء ما في النهاية.

قد يتساءل بعضكم عن كيفية تطبيق هذا الفهم عملياً، لكن هذا لا يزال تفكيراً من النموذج القديم الذي يتطلب منك القيام بشيء ما بهذه المعرفة. إن الفهم بحد ذاته هو التحول. عندما تدرك حقًا أنك الوعي الذي تنشأ فيه كل

التجارب، بما في ذلك تجربة كونك شخصًا لديه مشاكل لحلها، فإن اللعبة بأكملها تتغير. قبل أن يظهر الموناد من المصدر المجهول، لم يكن هناك باحث ولم يكن هناك شيء مفقود. هذا لا يزال صحيحاً الآن.

إن العقل الباحث، بكل طموحاته الروحية وقلقه الوجودي، ليس إلا مظهراً آخر ضمن الوعي الذي أنت عليه. هذا لا يعني أن الشخص الذي تبدو عليه يصبح غير ذي صلة. تستمر قصتك الإنسانية، لكنها تُمسك بخفة، مثل حلم يُعرف أنه حلم حتى أثناء معايشته. لا تزال تدفع فواتيرك وتحب عائلتك وتواجه التحديات، ولكن هناك راحة أساسية كامنة وراء كل ذلك، راحة شيء ليس له مكان يذهب إليه لأنه مكتمل بالفعل.

لم يكن الغنوصيون يحاولون الهروب من العالم أو تجاوز التجربة الإنسانية. كانوا يدركون المصدر الذي تنشأ منه كل التجارب، بما في ذلك تجربة كون المرء إنساناً. عندما تعرف نفسك كمصدر لذلك، تصبح كل لحظة بمثابة احتفال بإبداعك اللامتناهي الذي يعبر عن نفسه من خلال الشكل.